تحولات شخصية هاملت بين الفعل والطبع

أ . م . د . حميد صابر علي
م . د. حسن عبد المنعم
كلية الفنون الجميلة / جامعة البصرة

المقدمة :

اهتم شكسبير في مؤلفاته المسرحية بالعلاقة المتداخلة والمتشابكة بين الإنسان ونفسه وبين الإنسان والآخرين ، هذه العلاقة الديناميكية المعقدة والتي تشكل قيمة عالية على الصعيد الدرامي بوصفة يتضمن نماذج تمثل العنصر البشري على مر العصور ، أن رؤية الباحث لهذه النماذج بوصفها اشكالاً ذات مضامين مختلفة في التصرف والسلوك والأفكار والمعتقدات التي تعبر عن هموم الإنسان في مرحلة معينة وأحلامها ومواقفها ، سواء كان شكسبير في ملاحمه التاريخية (الملك لير ، مكبث ، هاملت) أو في بقية مسرحياته نلاحظ تركيزه على قضية القضاء والقدر وتكرار ذلك مرات عدة ولنلاحظ أيضا ذلك الانصياع الكامل لهذا المبدأ ،، أن شكسبير ما كان يملك تفسيراً معقولاً للحالة التي يعيش عليها شخصياته وكان شكسبير يحتج احياناً ولكنه كان مجبراً في النهاية على الركوية إلى قضاء الله وقدره وذلك لان هذه القوة الجديدة : الوضع الاجتماعي والسياسي والاقتصادي كان يفرض عليه أن تتلاءم شخصياته مع الواقع الراهن التي تمر بها المرحلة التاريخية فلا يملك شكسبير أن يقاومها أو كيفية تغيرها وربما لم يكن يستطيع وعي فعلها وكيفية النفاذ منه وانما كان يحس هذا إزاء المجتمع الممثل بالوشاة ويحسه بالرغبة في الهرب منه ، انه العجز الفردي اللاواعي امام قوة اكبر منة وتصبح القضية قضية تسليم بالواقع وكأنه قدر مرسوم وعندما يرى في معاناته هذه قدراً ألهياً وطاعة إلهية يصبح في الألم شيء كثير من لذة تأدية الفعل الدرامي سواء كان مناسباً او غير مناسب بالنسبة أليا نحن القراء ولكن لم يكن له سوى أن يؤدي الفعل الدرامي .هاملت شخصية إنسانية خالدة

خلود الإنسان على وجه هذه الأرض قدمها شكسبير كشخصية إنسانية قلقة غير مستقرة وغير ثابتةعلى نمط من الأنماط على خلاف شخصياته الإنسانية الأخرى وكان الباعث لعدم الاستقرار هو الأفعال المتغيرة التي تنتجها الطبائع المتغيرة دوماً نتيجة لشخصيته التي هي عبارة عن أفعال وطبائع فكان هذا الجهد البحثي في استكشاف شخصية هاملت وتحولاتها بين الفعل والطبع واستخدام القناع في استكناه معالم المعرفة لما يدور ، أي أن شخصية هاملت تحمل في طياتها نوعين من الفعل ونوعين من الطبع ، فالأول حقيقي داخلي قد سبق الكارثة التي حلت بوالده أما الثانية فهو خارجي وقد جاء بالقناع ليخفي هذا النوع في التصرف والسلوك الحقيقي .

أن هدف البحث هو استكشاف المدى الذي وصل اليه هاملت في الفصل بين هاتين النزعتين في التصرف والسلوكية

مسرحية هاملت :

لقد ظلت النظرة إلى مسرحية هاملت تتغير من جيل إلى اخر في ضوء ذوقه الخاص والمصطبغ بالشكل الدرامي السائد في زمنه ، ولاشك أن جمال (هاملت) وخصوبتها التي لا حد لها وكثرة ألوانها في علاقات التماثيل فيها .

أن هناك من يقول أن العاطفة الأساسية في المسرحية هي شعور آبي نحو أم آثمة وهناك من يصوح أن هاملت شخصية غير مفهومة وان تردد وحيرة هاملت بازاء غياب المعادل الموضوعي لمشاعره هو امتداد لحيرة خالفه أمام مشكلته الفنية . ولكن مسرحية هاملت تحوي على شعور مبهم وهو خوف وحزن هاملت لمقتل أبيه ورأي آخر يؤكد أن

الأمير فقد يخرشاً ، فقد اضاع بذلك مقاماً اجتماعياً ... ولقد اصبح من الثابت أن هاملت الشاب المثقف والمتأمل حين يحول ويعود مرة أخرى للمحاولة لتكشف لنا عن طبيعة هذا الأمير المتردد ... وهنا يكمن سر مأساته وسر قوة المسرحية .

أن دواعي الصراع في المسرحية من خلال الشخصيات التي تحاول أن تحدد وان تقضي على الداء الواقع أو المحتمل وقوعه والذي صاق بعهد كلوديوس في الدنمارك ولكنهم جميعاً يشخصونه تشخيصاً يختلف باختلافهم ومن هنا ينشا الصراع والخلاف بين أساليبهم المختلفة في الفصل ولما كان الداء خبيثاً وكان من الخطر أن يعكر أحدهم السطح الصافي لعهد كلوديوس وجب على جميع الشخصيات أن تتصرف سراً وبطريقة غير مباشرة وفي شك متبادل ومن ثم لم تنجم عن حركة فعل الشخصيات وطبائعها المختلفة ألوان شتى من الصراع تدور كلها في الظلام كان الخصوم لا يستطيعون مع انتظارهم وتصنيتهم أن يرى بعضهم بعضاً

وهنا يتبادر إلى ذهن الباحثين لماذا لم يقدم هاملت على قتل والده ؟ هذا السؤال يدور في فلك المسرحية منذ بدايتها وحتى نهايتها ويرى الباحثين أن الإجابة على هذا السؤال تكمن في شخصية هاملت وافعاله وطبائعه المختلفة

شخصية هاملت بين الفعل والطبع :

تعتبر شخصية هاملت من اغرب الشخصيات واكثرها توحداً وتعقيداً من بين كافة شخصيات شكسبير الدرامية ، فهي شخصية وجدت نفسها أمام أحداث مروعة تتعاقب أمام عينيه فلا بد له نتيجة لهذا الموقف أن يختار ما بين الوجود أو العدم ، وهو في بحثه المستمر عن اليقين يتيه في عامل الشك في كل الشخصيات الموجودة حواليه وبينما كان لابد له أن يتوصل إلى الحل الأخير نرى قدماه تزلقان باتجاه الفراغ بالرغم من انه كان يحسب نفسه راسخة على ارض اليقين . أن شخصية هاملت ذات مستويين الاول هو مستوى الوعي والثاني مستوى اللاوعي ، لان حياته أصبحت صراع بين النور والظلمة ، بين الخير والشر ، وترجح بين الهاوية والصمود ، بين الحرية والعبودية ، بين الكرامة والهون ، بين الواجب والأهواء ، بين الإنسان والوحش المتقنع في اهابه ، احوال من الفكر والهدوء ووميضات من السكينة (بين قبضتي عاصفة لا تخلف في النهاية إلا الأشلاء والدماء صراع لا خلاص له الا بالموت والعدم) (1)

أن شخصية هاملت (بنية) نواتها الطبع ، وتضم هذه البنة مراحل متعددة هي : مرحلة الوعي (ما قبل مقتل والده) ، مرحلة ما قبل اللاوعي (حالة التردد في اتخاذ القرار) ومرحلة اللاوعي (في تجريد ذاته من كل مكوناتها المنطقية) .

ويعتبر الطبع نواة هذه البنية ، وهي مسلمة ثابتة وأساسية تتحدد بأكملها عند ولادة الإنسان ، فيشكل الطبع نظاماً حياتياً وقد يكون هذا النظام مشتركاً بين عدة أشخاص يمتلكون نفس سمات الطبع الذي يتصف به هاملت والذي سيختلف عن هؤلاء الأشخاص بواسطة حياته الشخصية وهي الخاصية التي يتمتع بها كل فرد والتي يفضلها تصبح شخصيته متفردة .

أن شخصية الإنسان ميزة الإنسان النفسية وهي في الوقت نفسه مجموعة تصرفاته وطريقة عيشه وتفكيره ومزاجه . إنها تشكل (كلا متكاملاً) ولكن عناصر هذا الكل ليست كلها فطرية او وراثية ، وانما تتشكل شيئاً فشيئاً منذ سنوات الإنسان الأولى وتطبع بالأحداث والصدمات والخيبات والنجاحات التي تتعرض لها والتي تغير من معالمها تدريجياً ، فنرى بان هاملت قد أصابه الشيء الكثير من هذا التغير ، فشخصيته الأولى اختلفت تماماً عن شخصيته الثانية (أن هاملت ظل غريباً عن الحدث الأصلي وفي استقلال تام عن بقية الشخصيات .. مع أن الأحداث جعلت كلها دوافع نفسية لإنسان بائس دفعه الشر في عالم فاسد إلى أن يكون هو – على الرغم منه وعن وعي كذلك اداة شر بدوره) (2)

أن هاملت بقي ملتصقاً بذكرى والده بعد وفاته بفترة طويلة وهذه الفترة كانت كافية لكي يدخل في مجال الافتراس الداخلي لذاته فتحول إلى شخصية اخرى ذات طبع مختلف عن الطبع الاولي الذي كان يتميز به ، فهذه الشخصية الجديدة قد سنت القوانين التي تتعلق بردات الفعل الانسانية في ظروفها الجديدة ، فنرى هاملت ومن خلال اللغة التي تعتبر الوسيلة الوحيدة التي يستطيع الاخر من اعطاء عنوان متميز لشخصية هاملت في هذه المرحلة (من خلال اللغة يستطيع الفرد أن يعبر عن رؤاه الفريدة ومشاعره واتجاهاته نحو موضوعات كثيرة) (3)

وهاملت في هذه المرحلة يخبر هوراشيو :

هاملت : ابي ، كاني ارى ابي .

هوراشيو: اين ، ياسيدي .

هاملت : في قلبي وبصيرتي . (4)

أن العالم النفساني فرويد والذي اعتمد نظرة علاجية تركز على الشعور باللادونية ومحاولات تعويض هذا الشعور والتي يعتبرها ادلر محركاً لسلوك الشخص ، أن فرويد يعتبر الشخصية هي تكامل الهو والانا العليا وان كل دراسة عن الشخصية حسب رايه هي بالضرورة (تحليلية عليها أن تفتيش في تاريخ اللبيد وعن الاسباب التي تدفع الانسان إلى التصرف على هذا النحو او ذاك) (5)

أن هذا الاختلاف في طبائع هاملت حدث بعد مقتل والده مما جعله يفقد كل ارادة بالحياة لانه لم يستطع من العيش بطريقة توافقية

مع مجتمعه ، ولان جهود الارادة مرتبط بمفهوم ارادة القوة ، فان هاملت من حيث الطباع فقد كل مرونة في التعامل مع الاخرين بسبب فقدانه التكامل بين الانا واللاوعي الجماعي والشخصي ، والعقد النفسية التي بدات تظهر عليه من خلال علاقته بوالدته والتي كان يحبها حباً جارفاً ولكن الانا الاخر اثر عليه تاثيراً مرعباً من خلال علاقة والدته بعمه وزواجها منه بسرعة كبيرة اثارت الدهشة عند هاملت الذي راى أن والدته تدافع عن عمه (زوجها) دفاعاً مثيراً للشفقة حسب وجهة نظر هاملت نفسه ، فشخصيته الاجتماعية والتي هي بمثابة الطبقة الخارجية للشخصية المتكاملة والتي تحددها الطباع المختلفة في التصرف والسلوك ، اما القناع او (البرسونا) حيث يعمد الفرد إلى تبني شخصية مصطنعة (غير شخصية الحقيقية) بصورة واعية ، فيبدو شخصية زائفة تقنع شخصيته الحقيقية وتساعده (برايه) على التكيف مع محيطة ، أن هذا القناع يضعه هاملت في التفكير بتقديم مسرحية امام الملك والملكة ، فكان لابد له أن يضع القناع على وجهه دون أن يستخدم قناعاً حقيقياً لكي يترجم من خلال تصرفه هذا عدد معين من الاحكام التي اصدرها بشان والدته وعمه نظراً للجريمة التي تنم ارتكابها في القصر ، قد يكون القناع مؤقت ضمن طبع معين او عدة طباع ولكن حينما يصبح مندمجاً مع شخصيته يصبح متأصلا بالعادة كطريقة التصرف والمشي والنظر والتحدث من جهة والافكار والمعتقدات والاراء من جهة اخرى .

أن هاملت الفتى اصبح رجلاً ذو شكيمة وقوة هائلة من اجل الانتقام ، ففي هذه اللحظة التي يظهر فيها الطيف والحديث الذي دار بينهما يهتز كيان هاملت فتختفي شخصية هاملت الأولى بطباعها وطبائعها والى الابد وتظهر شخصية اخرى بطباع جديدة ولكن لابد من وجود قناع يخفي من وراءه هذه الطباع التي تولدت نتيجة للصدمة التي خلفتها ظهور الطيف (أن معرفة هاملت ، او على الاقل ريبته الشديدة ، بصدد هذا الجرم هي سره هو ، سره الذي يخيفه تحت رداء من التصرف الغريب) (6) .

أن هاملت لم يكن غريباً عن الاجواء التي عاش فيها من قبل في زمن والده ، ولكن الحادثة المأساوية التي حدثت بشكل مفاجيء بالنسبة اليه هزت كل كيانه فدفعته إلى أن يغير كل اراؤه في الحياة حول الحب والجنس والوفاء والعائلة كنظام دفاعي ضد مقدرات الزمن ، هذا العدد الهائل من القناعات التي يفكر فيها ويصدر احكامه انطلاقاً منها ، فكانت تشكل هذه القناعات الاطار المرجعي الذي ترتبت عليها الاحداث فيما بعد ، ويقابل هذه الاراء والاطر المرجعية انظمة من ردات الفعل العاطفية او الكلامية تنطلق مع تلقائية ارتكاسية عندما تتاح لها الفرصة ، فاصبحت شخصية هاملت (الاجتماعية) إلى حد ما مجموعة تصرفاته الالية والمكررة التي حدثت (كردة) فعل تجاه مقتل والده وظهور الطيف وتسرع والدته في الزواج من عمه ، فتحولت هذه الشخصية (الاجتماعية) إلى شخصية خارجية تتصل بالعالم خارجي وبها تعبر عن نفسها ازاء العالم الذي يعيشه القصر (وهاملت يظن انه" غير رجل " لانه ضعيف ، ولكن المعنى الحقيقي الذي يخفق فيه هو في كونه غير مكتمل ، لانه سمح لعالمة الداخلي أن يصبح بديلاً من مشاركاته الاجتماعية) (7) .

فتكمن شخصية هاملت الحقيقية تحت قناع الشخصية الجديدة وتحت قناع مجموعة التصرفات البعدية المكررة والمبتكرة ويقوم الطبع باختيار الاراء والمواقف فيساهم القناع في تطور الطبع اذ يصبح هذا الاخير مشابهاً للقناع اكثر فاكثر في الحدود التي يكون فيها القناع مستبطناً وشبيهاً إلى حد ما بالانسان ، ويؤدي هذا التفاعل بين القناع والطبع احياناً إلى أن يصنع من القناع طبيعة ثابتة يصعب التخلص منها ، ولابد من أن يساعد القناع الانسان على التكيف مع موقف ما فانه يكتبه ويحوله إلى ألة بطريقة مشوهة . أن هاملت موزع بين طبيعته الاولى وضرورة أن يجي فيها وسط مجتمعه (القصور وما بداخله من تناقضات)وبين تحولات الفعل المعقد الذي كان لابد منه في سبيل الوصول إلى هدفه الذي لا يستطيع أن يحيد عنه ولايستطيع أن يصل اليه نتيجة للعزلة التي وجد نفسه فيها والتي هي بعيدة كل البعد عن طبعه الاجتماعي (ففي المسرحية الكثير مما يشير إلى أن هاملت كان رجلاً اجتماعياً وعفوياً .... كان من الواضح انه اقل غموضاً وانسجاماً من الشخص الذي يرونه في المسرحية وهاملت نفسه غير راض عن العزلة التي اكره عليها بموت ابيه) (8) .

وهذا بالضبط ما دفع هاملت إلى استخدام نوع من القناع لاخفاء طبيعة تصرفاته الاولى عند التحولات التي حدثت في القصر مما ادى أن يتصرف بشكل اخر . أن البعض من النقاد قد راى بان هاملت كانت طبيعته العزلة والتوحد والتفرد (هاملت مستوحد بشكل واضح مستمتع بجوانيته على ذاته المتفردة الرافضة للتواصل مؤكد على القيم الخاصة في طبيعته ، وعيه لذاته وتامله الجواني كلاهما ليسا خصلتين طورتهما الاحداث الاخيرة في حياته بل هما جزء اصيل من طبيعته) (9) .

أن هذا الراي ينطبق على هاملت بعد أن اكتوى بنار معرفته بان والده قد قتل وحينما اصبح الفعل لديه باتجاه الانتقام من والده وهذا التحول بين الطبع قبل الجريمة وبعد الجريمة جعل افعاله تسير باتجاه مغاير عن طبيعته الاولى التي عاش بمقتضى سلوكياتها في كنف ابيه والا كيف نفسر تلك التصرفات التي (يتصرف بها تجاه هوارشيو وروزنكراتز و غلد نستيرن وترحيبه الحار بالممثلين) (10) أن الاصطدام بين الطبع وضرورة الفعل الناتج عن الضرورة الحتمية لجريمة القتل ، هذا الصراع ولد نزعة الجنون لدى هاملت وهو جنون

غير حقيقي في لحظة من اللحظات وهو حقيقي في لحظة صحيحة اخرى (كذلك هاملت يؤدي به تامله لفكرة الانتقام إلى ما يشبه الجنون او تصنع الجنون) (11).

أن هذا الجنون او تصنع الجنون لابد أن يجعل من العقل حالة سلبية في التفكير في الخطوة التي ستاتي فيما بعد والعقل (هو السلطة التي تجمع بين العالم الذاتي والعالم الموضوعي في وحدة متجانس(12)

فعدم استطاعة هاملت في التوفيق بين العالم الذاتي الذي يمثله في مرحلتين او نزعتين والعالم الموضوعي الذي يدفعه دفعاً باتجاه التصرف المغاير او غير الاصيل ، عدم التوفيق هذا سببه أن الطبع الاول قد تم التلاعب فيه واتجه إلى طبائع اخرى لم تكن موجودة في داخله .

الاستنتاجات :

١-لاتمثيل الطبع الشخصية باكملها فهو ليس سوى محصلة للوراثات التي تقاطعت منه من أبويه وأجداده القريبين والبعديين . أن هذه الوراثيات ليست فقط متقاربة بل مؤلفة ميزة خاصة شبيهة بالميزات الاخرى ومختلفة عنها في الوقت نفسه . وهكذا فان الطبع وراثي وفطري وينفي كل ما هو مكتسب .

٢-أن الطبع ثابت . فهو الذي يمثل هوية الانسان البنيوية على مدى حياته . وهو القاع الثابت الذي ولايتطور على الرغم من كل المحولات التي تتعرض لها الحياة العقلية . كما يحدد الطبع تطور الحياة النفسية لانه يقع في اساس اختيار تاثيرات المحيط يتعرض لها الانسان

٣-ليس الطبع سوى هيكل الحياة النفسية ، وهو يقع في الحدود بين ما هو عفوي ، وما هو نفسي ، فينفرد الجسم ويكرس خاصيته من خلال الطبع ويتفرد الطبع ويكرس خاصيته من خلال الجهاز العقلي . وهنا يمكننا القول أن الطبع هو مظهر الانسان النفسي وهو ما يميزه جسماً وروحاً . انه بنية تترجم بالسلوك والامزجة والتصرفات الشخصية . فتتكون شخصية الانسان الراشد بتاكيد الطبع ومعارضته وتكيفه مع المحيط وظروف الحياة . هذا ويشكل الطبع العنصر الاساسي للشخصية لا بل نواتها . فكل تطور في الشخصية هو نتيجة تفاعل هذه النواة الثابتة مع متغيرات المحيط .

٤-أن هاملت قد تملكته نزعتين في التصرف والسلوك وهاتين النزعتين تتبعان طبعين الاول اصيل جاءه من خلال الحياة الطبيعية التي عاشها مع والده والثانية داخلية عليه مفروضة من قبل الاحداث التي جرت في القصر فلا بد من أن يتكيف معها فاستحدث معها القناع الذي يستخدمه هاملت

قائمة المصادر :

1-ايليا حاوي ، شكسبير ، جـ 1 ، (دار الكتاب اللبناني ، بيروت 1980) ص 95 .

2-محمد احمد النابلسي ، اصول ومبادئ الفحص النفسي (دار الهلال ، بيروت ، 1973) ص 36-37 .

3-ايليا حاوي ، شكسبير جـ 1 ص 127 .

4-د. محمد غيثمي هلال ، النقد الادبي الحديث (دار الثقافة ، دار العودة ، بيروت ، 1973) ص 598 .

5-د. جمعه يوسف ، سيكولوجية اللغة والمرض العقلي ، (المجلس الوطني للثقافة والفنون والادب ، الكويت ، 1990) ص 23 .

6-شكسبير ، هاملت ت : جبرا ابراهيم جبرا (دار العودة ، بيروت ، 1978) ص 4 .

7-فرويد ، علم النفس التحليلي ت : محمد حسن باقر (دار الهلال ، بيروت ، 1978) ص69 .

*طبيب ومعالج نفسي مولود في فينا عام 1810 وهو اعتمد نظرة تركز على الشعور ومحاولات تعويض هذا الشعور التي يعتبرها ادلر محركاً لسلوك الشخص .

*فكرة القناع هذه ادخلها في للبير سونا كعقدة من عقد الشخصية . حيث تعمد الفرد إلى تبني شخصية مصطنعه (غير شخصيته الحقيقية) بصورة واعية . فيبدو بشخصية زائفة تقنع شخصيته الحقيقية وتساعده (برايه) على التكيف مع محيطه . ومصطلح البيرسونا كان يستخدم تقليدياً للاشارة إلى الاقنعة التي يرتديها ممثلو المسرح في العصور القديمة .

8-جون دوفر ولسون ، ما الذي يحدث في هاملت ، ت : جبرا ابراهيم جبرا (دار الرشيد للنشر ، بغداد ، 1981) ص93 .

9-جانيت ديلون ، شكسبير والانسان المستوحد ، ت: جبرا ابراهيم جبرا (دار المامون للترجمة والنشر ، بغداد ، 1986) ص168 .

10-المصدر السابق ص157 .

11-د. سمير سرحان ، دراسات في الادب المسرحي (بغداد ، دار الشؤون الثقافية ، 1987) ص38 .

12-هربرت ماركوز ، الانسان ذو البعد الواحد ت : جورج طرابيشي (بيروت دار الادب 1973) ص163 .